

شخصية رائدة

إسماعيل دينغ يقدم لمحة عن شخصية ليونارد وانتشيكون، الناشط السابق الذي يعتزم تدريب الجيل القادم من الاقتصاديين الأفارقة

نادرا ما يكون الهروب من السجن جديرا بعناء المحاولة. فمعظم الهاربين من السجن يعودون مرة أخرى وراء القضبان خلال ساعات من هروبهم. ولكن في عام ١٩٨٦ أثبتت محاولة للهروب من السجن جدواها عندما استطاع «ليونارد وانتشيكون» الهرب من سجنه حيث كان «ماثيو كريكو»، رئيس بنن - ذلك البلد الصغير في غرب إفريقيا- يحتجز جميع معارضية السياسيين. فقد استطاع ذلك الناشط الشاب الهروب من السجن منذ ثلاثين عاما والتوجه إلى نيجيريا المجاورة. ولدى عودة وانتشيكون إلى وطنه بعد عقد من الزمان كان قد نال درجة الدكتوراه. وفي وقت لاحق قام بالتدريس في رابطة الجامعات الأمريكية المعروفة باسم «رابطة اللبلاب» (Ivy League)، ونشرت له مقالات في بعض الدوريات الأكاديمية الرائدة، كما تم اختياره لعضوية «الأكاديمية الأمريكية للآداب والعلوم»، وهي واحدة من أقدم جمعيات العلماء الأكاديميين وأعلىها مكانة في الولايات المتحدة.

وقد اتسمت عملية هروب وانتشيكون بالجرأة لكنها لم تكن مثيرة في أحداثها. ففي أحد الأيام من شهر ديسمبر ١٩٨٦ طلب مراجعة عيادة الطبيب خارج السجن للعلاج من مرض روماتيزم المفاصل الذي أصابه بعد ١٨ شهرا من التعذيب لأنه جرؤ على المطالبة بإنهاء النظام الديكتاتوري للرئيس كريكو. وكان مدير السجن يثق في هذا الطالب اليساري الذي يبلغ من العمر ٣٠ عاما، وكان قد سبق له زيارة نفس الطبيب مرتين. ولكن هذه المرة، لم يكن وانتشيكون، الذي كان يتوقع بقاءه حبيسا لسنوات عديدة أخرى، يعتزم العودة. فأعد الترتيبات لكي تنتظره سيارة ودراجة نارية ليستقلهما في رحلته إلى نيجيريا. ويعد وانتشيكون، الذي يعمل حاليا أستاذا في جامعة برينستون الأمريكية، واحدا من قلة من الاقتصاديين الأفارقة الذين يمارسون مهنة التدريس في إحدى جامعات القمة في الولايات المتحدة. وتركز أعماله البحثية، التي حظيت باهتمام كبير من خبراء اقتصاديات التنمية، على الجذور السياسية والتاريخية للتنمية الاقتصادية في إفريقيا. ويتناول وانتشيكون دراسة أثر تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلنطي على التنمية الاقتصادية المعاصرة في إفريقيا، كما يبحث في كيفية تأثير مشاركة المواطنين في الحد من المحاباة، وتحسين الحوكمة الديمقراطية، وإرساء الأساس للسياسات الداعمة للنمو الاقتصادي.



ولتوضيح هذه النقطة، أوضح وانتشيكون دهشته لزيادة مستوى الفقر في قرية والدته في عام ٢٠٠٩ منذ زيارته الأخيرة لها في أواسط السبعينات. وأصبح مشغولا للغاية بمحاولة تفهم الأسباب التي أدت لهذا التدهور الذي تخطى حدود انهيار الجسر الذي كان يربط بين القرية والمجمعات المجاورة. وقد حفزت روح الخبير الاقتصادي بداخله محاولة استجلاء الأسباب الجذرية لهذا التدهور، وهو ما أدى إلى كتابة أولى دراساته البحثية عن اقتصاديات الزراعة، بعنوان «لعنة التربة الجيدة؟ خصوبة الأراضي، والطرق، والفقر في المناطق الريفية في إفريقيا» (The Curse of Good Soil? Land Fertility, Roads, and Rural Poverty in Africa) التي اشترك معه في كتابتها «بييرو ستانينغ» من جامعة بوكوني في إيطاليا. ويخلص المؤلفان وانتشيكون وستانينغ في دراستهما إلى أن المزيج الذي يجمع بين الأراضي عالية الخصوبة والافتقار إلى البنية التحتية يزيد من فقر السكان. ولكن كيف يحدث ذلك؟ ويقول وانتشيكون، «عندما تكون معزولا بدون بنية تحتية والأراضي غير خصبة، فإنك ترسل أولادك إلى المدرسة لتلقي العلم لأن الأرض فقيرة للغاية لدرجة لا تفلح جهود الأولاد في إصلاحها. ولكن إذا كانت الأرض غنية، فقد ترغب في إنجاب المزيد من الأولاد وإرسالهم جميعا للعمل في المزرعة».

«وعندما توفر التدريب للمواطنين، فإنك تحول ما لديهم من حافز شخصي إلى بحوث اقتصادية متقدمة».

«وعندما توفر التدريب للمواطنين، فإنك تحول ما لديهم من حافز شخصي إلى بحوث اقتصادية متقدمة. والأفارقة بوسعهم تقديم مساهمة كبيرة في المعرفة الاقتصادية عن طريق الاستفادة من وعيهم بثقافتهم وما لديهم من حافز متأصل للوصول فعليا إلى جذور التحديات التي تواجه القارة الإفريقية».

رحلة غير عادية

وُلد وانتشيكون ونشأ في قرية صغيرة في وسط بنن، حيث كانت أسرته تتعرض لسوء المعاملة من جانب الحكومة. ففي عام ١٩٦٨، أُلقي القبض على والده، الذي كان يعمل بزراعة الكفاف، وتعرض للإهانة واحتجز لعدة أيام لعدم سداده ضريبة النفوس — وهي ضريبة موحدة تتم جبايتها على كل مواطن بالغ وكانت تبلغ حوالي ٨٠٪ من الدخل النقدي لأسرته. واستمرت هذه الأوضاع خلال مرحلة تعليمه الأولي، وفي عام ١٩٧١ انضم إلى حركة الطلبة اليساريين للكفاح من أجل تحقيق الديمقراطية وصد الضرائب المجحفة على الفقراء. وفي عام ١٩٧٦ أُلقي القبض على وانتشيكون، عندما كان في الصف الحادي عشر بالمدرسة، وذلك لكتابة مقالة في الجريدة الطلابية ينتقد فيها النظام الحاكم. وفي العام التالي نظم أول احتجاجاته الطلابية.

وكان حلم وانتشيكون في إحدى مراحل حياته أن يصبح مدرسا لعلوم الجبر. فقد كان متميزا في مادة الرياضيات. ولكن دراسته تأثرت بشدة نتيجة نشاطه السياسي، الذي زاد بعد التحاقه بجامعة بنن في عام ١٩٧٩، حيث أنشأ جماعة سرية للكفاح من أجل الحرية والديمقراطية في البلاد. لكنه لم يستمر طويلا في الجامعة. فقد طردته هيئة الجامعة بعد أول إضراب عام للطلبة، مما اضطره للاختفاء عن الأنظار لمدة خمس سنوات، لكنه ظل قريبا من الجامعة وواصل تنظيم الأنشطة الطلابية سرا من خارجها.

وفي منتصف الثمانينات، تعرضت حكومة بنن لضغوط للحد من طغيانها. وعاد وانتشيكون للجامعة، لكنه لم يلمس زملاؤه التغيير السياسي

ويقول ناتان نان، البروفيسور في جامعة هارفارد وأحد المؤلفين المشاركين مع وانتشيكون ومحرر «دورية اقتصاديات التنمية» (Journal of Development Economics) «إن دراسات وانتشيكون البحثية تعرض منظورا فريدا للتنمية الاقتصادية. فهي تشمل موضوعات كبيرة ومهمة، وتستخدم في نفس الوقت طرائق إحصائية وأساليب تجريبية دقيقة. ويساعد تركيزه على السياسة ودورها في عملية التنمية على سد الفجوة الهائلة القائمة في الوقت الحالي في اقتصاديات التنمية».

رد الفضل للقارة

البروفيسور وانتشيكون، الذي يعيش في الولايات المتحدة منذ ٢٤ عاما، هو من مشجعي فريق «كليفلاند كافالييرز» لكرة السلة، وهو من أشد المعجبين بنجم الفريق «ليبرون جيمس» الذي تشغله، مثل وانتشيكون، رغبة رد الفضل لمجتمعه. فقد كان ليبرون حريصا على الفوز ببطولة «الرابطة الوطنية لكرة السلة» الأمريكية (NBA) من أجل مدينته «أكرون» وولايته «أوهايو»؛ أما وانتشيكون، فهو يتطلع إلى تدريب الجيل القادم من الاقتصاديين الأفارقة. فقد استطاع منذ عامين بعد أن أمضى أربع سنوات في التخطيط، أن يفتح «كلية إفريقيا للاقتصاد» لتقديم التدريب الأكاديمي من الطراز الأول للاقتصاديين الشباب من القارة الإفريقية. ويعتزم في المرحلة القادمة افتتاح برامج للدراسة الجامعية في مجالات الاقتصاد والمالية والإدارة والإحصاء وعلوم الكمبيوتر. ويتمثل هدفه في تزويد أعداد كبيرة من الأفارقة بالتدريب اللازم للتصدي لأكثر قضايا التنمية إلحاحا التي تواجه القارة الإفريقية.

وفي مقابلة مع مجلة التمويل والتنمية قال وانتشيكون «إنه من المدهش لمن يعيش في إفريقيا أنه يجد بعض أهم التحديات والمعضلات المتعلقة بالتنمية الاقتصادية متجسدة بوضوح أمام عينيه، فالمعضلات كثيرة، ولكنها حتى وقتنا هذا لا تخضع للدراسة التفصيلية إلا خارج القارة أساسا. فالتاريخ الاقتصادي في إفريقيا موضع دراسات بحثية مكثفة في شتى أنحاء العالم، ولكن قليلا فقط من الباحثين أفارقة المولد يشاركون في هذه الجهود البحثية». وفي العام الماضي، كتبت غرييف شيلوا، الزامية الجنسية والزميلة الباحثة لدراسات ما بعد الدكتوراه في جامعة هارفارد، بإحدى تدويناتها في واحدة من أوسع المدونات انتشارا أن «علم الاقتصاد ربما يعاني من مشكلة تتعلق بإفريقيا». وذكرت أن الدورية الأكاديمية الصادرة عن جامعة أوكسفورد «دورية الاقتصادات الإفريقية» (Journal of African Economies)، وهي من المطبوعات المهمة والمؤثرة التي تعنى بقضايا التنمية الاقتصادية في إفريقيا، لا تضم سوى باحث أكاديمي واحد مقره في إفريقيا من بين أعضاء هيئة التحرير البالغ عددهم ٢٧ عضوا. (ومنذ كتابة هذه التدوينة زاد العدد إلى اثنين). ولا يوجد باحث أكاديمي واحد مقره في إفريقيا من بين أعضاء هيئة تحرير «دورية اقتصاديات التنمية» البالغ عددهم ٦٤ عضوا.

ووفقا لما ذكره وانتشيكون، هناك عاملان يسهمان في ضالة مستوى التمثيل الإفريقي. أولا، عدم وجود تدريب في العلوم الإنسانية بالتعليم الجامعي في معظم البلدان الإفريقية. ويقول «إن التعليم الجامعي أو التعليم في مستوى الثانوي غالبا ما يكون تخصصيا بدرجة مفرطة، بينما يتعين في دراسة علم الاقتصاد أن يكون الطلبة متعددي الاهتمامات». وثانيا «ضعف مستوى التدريب في الرياضيات والإحصاء ضمن مناهج العلوم الاجتماعية». ويقول وانتشيكون إن ضالة عدد الاقتصاديين الأفارقة هي «خسارة» للمهنة. «ونحن لا ندرك فداحة الضرر» الذي يلحق بدراسة اقتصاديات التنمية في إفريقيا من قلة عدد «الأفارقة المشاركين في البحوث الاقتصادية على أعلى مستوى». فهم يجلبون معهم تفهما للأوضاع الداخلية «واهتماما متأصلا» مما يمكن أن يعزز النتائج البحثية.



(game theory). وكان الموعد النهائي لتقديم الطلبات في اليوم التالي. وهرع وانتشيكون عائداً إلى المنزل حيث قام بإعداد طلب التوظيف وأرسله بالبريد في نفس اليوم. وتلقى دعوة لإجراء مقابلة شخصية. وقد اضطر وانتشيكون لاقتراض مبلغ ألفي دولار من أحد أستاذته لشراء بدلة وتذكرة طائرة لحضور هذه المقابلة التي أسفرت عن نتائج طيبة. وخلال أسبوع واحد جاءه الرد من جامعة ييل متضمنا عرضاً وظيفياً، واستمر في التدريس بجامعة ييل من عام ١٩٩٥ إلى ٢٠٠١. ثم انتقل بعد ذلك للعمل بالتدريس في جامعة نيويورك لمدة عقد من الزمن، حتى اجتذبتة جامعة برينستون للعمل بها في عام ٢٠١١. ويقسم وانتشيكون وقته حالياً بين مقر جامعات رابطة اللبلاب في ولاية نيو جيرسي وجمهورية بنن، حيث بدأت تتضح معالم حلمه بتدريب الاقتصاديين الأفارقة.

أساس تدريبي وليم

تمنح حالياً الكلية الإفريقية للاقتصاد، في مقرها المؤقت بالقرب من كوتونو، العاصمة الاقتصادية لجمهورية بنن، درجات الماجستير في الرياضيات والاقتصاد والإحصاء وإدارة الأعمال. وتمنح كذلك درجة الدكتوراه في الاقتصاد. وسوف يتخرج أول طلابها بدرجة الماجستير في شهر ديسمبر ٢٠١٦. وتفخر الكلية بشركائها الإثنى عشر من الجهات الأكاديمية، ومنها جامعة برينستون، التي قدمت دعماً جزئياً للكلية لمدة أربع سنوات، والبنك الدولي، الذي يمول حوالي ٢٠ منحة دراسية للطلبة في برامج الرياضيات والاقتصاد والإحصاء.

ويوضح وانتشيكون خطته من أجل التوسع والحرم الجامعي الذي يعتزم بناءه على مساحة ١٨,٥ فدان، ويضم حديقة للنباتات، ومتحفاً للفن الإفريقي، وملاعب رياضية، وجميع المرافق المتوفرة بأي من جامعات أمريكا الشمالية، مثل جامعة برينستون. ويأمل وانتشيكون افتتاح فروع للكلية في شرق إفريقيا (نيروبي) وغرب إفريقيا (أبيدجان) - بحيث تقدم خدماتها في نهاية المطاف إلى ١٥ ألف طالب.

وقد صمم وانتشيكون منهجاً دراسياً يعتقد أنه سيسمح لطلابه بمنافسة أفضل الطلاب حول العالم. ويركز المنهج الدراسي بشدة على الأساليب الكمية والمهارات البحثية. وسوف يتعرف الطلبة أيضاً على أساسيات التاريخ الاقتصادي الإفريقي. ويقول في هذا الشأن إن «أحد الأمور التي تفضلنا عن قارات العالم الأخرى أننا أقل دراية بأنفسنا. وعلى سبيل المثال، قليل فقط من الأفارقة سمعوا عن «محاربات الأمازون» - وهي وحدة عسكرية منقذة كافة عناصرها من النساء في مملكة داهومي، المملكة الإفريقية التي كانت تقطن في الأراضي المعروفة الآن باسم بنن. وقد أسست هذه الوحدة العسكرية في عام ١٦٤٥ على يد الملك هوغيبيدجا وظلت قائمة حتى قامت سلطة الاستعمار الفرنسي بحلها في عام ١٨٩٤.

وفي الوقت الحالي يمضي وانتشيكون، الذي يبلغ من العمر ٦٠ عاماً، أربعة شهور كل سنة في موطنه الأصلي، ولكن مع استمرار توسع الكلية يعتزم قضاء مزيد من الوقت في بنن. ويقول في هذا الشأن «إني أرى دوري في التواجد هناك لتنشيط العمل البحثي، وليس لإدارة الأمور على أساس يومي». ولكنه يرغب أيضاً في البقاء على اتصال وثيق مع جامعة برينستون وغيرها من الجامعات الأمريكية. ويقول «حتى بعد تقاعدي، سأظل دوماً إلى حد ما راغباً في أن أكون جزءاً من مكان كهذا. وهذا هو أحد السبل للتعبير عن امتناني لما أتحت لي من فرص في هذا المكان، كما أن الحفاظ على التواصل مع جامعة مثل جامعة برينستون والمساهمة في المعارف هو أمر أود له أن يستمر».

باحث انتقائي

كانت مملكة داهومي مؤرداً رئيسياً للعبيد لتجار الرقيق الأوروبيين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. ولذلك كان العديد من الأفارقة يتم شحنهم مكبلين من مملكة داهومي حتى أصبح يطلق عليها اسم «ساحل العبيد». ويقول وانتشيكون إن موروث العبودية واسع الانتشار. فهو يذكر في سنوات صباه أنه كان يسمع أصدقاءه يتندرون بعبارات مثل «هذا الشخص سوف يبيعك»

الذي كانوا يتوقعونه. وقاموا بتنظيم مظاهرة احتجاجية كبيرة ضمت طلبة الجامعة وطلاب المدارس الثانوية وموظفي الخدمة المدنية. وبعد قرابة ثلاثة شهور فقط من عودة وانتشيكون من مخابئه تم القبض عليه مرة أخرى وأمضى الفترة المتبقية له في بنن سجيناً - حتى هروبه في عام ١٩٨٦.

وبينما نجد كثيراً من العلماء الأكاديميين قطعوا شوطاً طويلاً في مهنة التدريس وهم في أوائل الثلاثينات من عمرهم، فإن وانتشيكون لم يكن قد حصل بعد على درجة جامعية وهو في سن الثانية والثلاثين. فبعد هروبه من السجن توجه إلى كندا كلاجئ سياسي والتحق على الفور بجامعة لافال في مدينة كيبك. وقد استطاع أن يتجاوز دراسة العديد من المواد الدراسية الجامعية واتجه مباشرة لدراسة الماجستير في الاقتصاد، رغم أنه لم تكن لديه أي خلفية عن هذا الفرع من العلوم. ويقول البروفيسور جيرار غوديه، أستاذ الاقتصاد آنذاك في جامعة لافال، إن «إصراره الملحوظ مع تقدمه في العمر بالنسبة لهذه المرحلة الدراسية كانا وراء قرار الجامعة بمنحه فرصة لإثبات ذاته عن طريق إتمام الدراسة لمدة سنة واحدة في مجموعة مختارة بعناية من المواد الدراسية الجامعية. وقد أتمها بنجاح ساحق».

ويقول وانتشيكون ضاحكاً «إن درجة الماجستير هي فعلياً أول درجة جامعية أحصل عليها». وكان قد أمضى عامين بعد ذلك كطالب دراسات عليا في جامعة بريتيش كولومبيا في فانكوفر، كندا في عام ١٩٩٢، قبل أن ينتقل إلى جامعة نورث ويسترن بالقرب من مدينة شيكاغو في الولايات المتحدة، حيث حصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد في عام ١٩٩٥، متخصصاً في الاقتصاد السياسي واقتصاديات التنمية.

ولكن الأمر لم يخل من الصعوبة. فقد عانى وانتشيكون في سبيل اجتياز الاختبارات التأهيلية، الأمر الذي كاد يؤدي إلى فصله من برنامج دراسة الدكتوراه. ولكن لحسن حظه، أخذت الجامعة في اعتبارها بعض الظروف التخفيفية، بما في ذلك ظروف زوجته الصحية التي كادت تؤدي بحياتها أثناء ولادة ابنهما إلى جانب أنه كان قد شارف على الانتهاء من إعداد رسالة الدكتوراه. ولكن أداءه الضعيف كان مقيداً لفرص حصوله على العمل. ثم جاءت الفرصة عندما طالع بالصدفة إعلاناً في مجلة «الدورية الأمريكية للعلوم السياسية» (American Political Science Review) تبحث من خلاله جامعة ييل عن أستاذ مساعد للعلوم السياسية متخصص في «نظرية الألعاب»

أو «يجعلك تختفي». وكانت تلك التوجهات تبدو مؤشرا على أوضاع مجتمعية عامة كانت مثار حيرة وانتشيكون: عدم الثقة بين المواطنين الذين عاشوا معا في بعض الأحيان لعقود طويلة كأصدقاء وزملاء وجيران. وفي هذا الخصوص يقول إنه بدهاءة كان يعتقد أن «ذلك يرتبط حتما بتجارة الرقيق»، وقد ظلت هذه الفكرة تسيطر على تفكيره لاحقا.

«مدارس الإرساليات لا تزال تقوم بدور مهم في إفريقيا».

وللتعمق في فهم هذا الشعور بعدم الثقة، تواصل وانتشيكون مع البروفيسور نان من جامعة هارفارد، الذي كان يدرس الآثار طويلة الأجل لتجارة الرقيق على التنمية الاقتصادية. وشرا في تبادل الآراء حول هذا الموضوع وانتهى بهما الأمر إلى المشاركة في تأليف ورقة بحثية أصبحت لاحقا واحدة من أهم الدراسات التي أعدها وانتشيكون، بعنوان «تجارة الرقيق وأصول انعدام الثقة في إفريقيا» (The Slave Trade and the Origins of Mistrust in Africa)، ونشرت في عام ٢٠١١ في مجلة «الدورية الاقتصادية الأمريكية» (American Economic Review) واستشهدت بها بحوث أكاديمية أكثر من ٧٠٠ مرة منذ ذلك الحين. واشترك نان مع وانتشيكون في إعداد بيانات استقصائية معاصرة تتضمن بيانات تاريخية عن شحنات العبيد حسب المجموعات العرقية وذلك لبيان أن الأفارقة الذين تعرض أسلافهم لغارات مكثفة من تجار الرقيق عبر المحيطين الأطلنطي والهندي هم في الوقت الحالي أقل شعورا بالثقة تجاه الآخرين مقارنة بهؤلاء الذين لم يتعرض أسلافهم لغارات تجارة الرقيق. وحول هذا الأمر، يقول البروفيسور نان «إن هذه الدراسة قدمت أدلة قيمة تبين أن الصدمات التاريخية يمكن أن تكون لها آثار ممتدة ومزمنة على النسيج الثقافي للمجتمع. وقد عمقت فهمنا للآثار الضارة المترتبة على تجارة الرقيق. ونظرا لأن الثقة ضرورية أساسا للمعاملات الاقتصادية، فقد عرضت هذه الدراسة دليلا على إحدى القنوات التي تقوم عليها الآثار الضارة طويلة الأجل لتجارة الرقيق على التنمية الاقتصادية».

تجارب ميدانية

انجذب وانتشيكون لعلوم الاقتصاد بسبب اهتمامه بالرياضيات والتفكير المنطقي. ولكن شغفه بالعمل كناشط أعاده إلى حبه الأول، أي السياسة. وكان البروفيسور روجر مييرسن، المشرف على رسالة وانتشيكون في جامعة نورث وسترن، والحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد في عام ٢٠٠٧، قد حث طلابه بتنمية مهاراتهم التحليلية في الهندسة السياسية، التي تعمل على إنشاء المؤسسات الاجتماعية.

وقد أخذ وانتشيكون بهذه النصيحة بمنتهى الجدية. وكان العمل النظري للبروفيسور مييرسن قد أوحى لوانتشيكون «تخيل» بعض الحلول المؤسسية المحددة للمشكلات السياسية واختبارها تجريبيا وبدقة. وكانت إحدى دراساته البحثية، التي عرضت نتائج تجربة ميدانية عن المحاباة (clientelist)، أو الاستراتيجيات الانتخابية القائمة على المحسوبية، هي أول تجربة عشوائية منضبطة في بحوث الاقتصاد السياسي تنطوي على مرشحين حقيقيين يتنافسون في انتخابات حقيقية.

وقد استطاع وانتشيكون أن يقنع أربعة مرشحين في الجولة الأولى من انتخابات الرئاسة في بنن في مارس ٢٠٠١ بالسماح لأعضاء فريقه البحثي بكتابة رسائل حملاتهم الانتخابية واختبارها مع أهالي القرى. وأعد الفريق نوعين من الرسائل. استخدمت في أحدهما وعود انتهازية موجهة — ببناء الطرق والمدارس والعيادات الطبية، في قرية معينة على سبيل المثال. وقدمت في النوع الثاني رسائل عامة حول الحاجة لتحسين مستوى الرفاهية في البلاد. وتم التعامل مع الناخبين في القرى التي تلقت رسائل الحملات

الانتخابية العادية من المرشحين بخلاف تلك التي أعدت لأغراض التجربة بوصفهم مجموعة الضبط. وقد تمكنت التجربة من التحقق من صحة الحجج القائلة بأن المناشآت القائمة على المحاباة، كالوعود الموجهة ببناء الطرق والعيادات الطبية، هي أكثر فعالية من المناشآت القائمة على السياسات العامة بوجه عام. غير أن المحاباة تصبح أقل جاذبية عندما ينظم المرشحون حملاتهم الانتخابية على أساس اللقاءات المفتوحة.

ويعتبر وانتشيكون في الوقت الحالي اقتصاديا انتقانيا ومختلطا في مجال التنمية، حيث يبحر بسعادة في مجالي العلوم السياسية والاقتصاد. وعن عمل وانتشيكون، يقول أستاذه من جامعة لافال، البروفيسور غوديه، المتقاعد حاليا، إن «أعمال وانتشيكون تُنشر في دوريات أكاديمية تعنى بالعلوم السياسية وبالاقتصاد، وهو أمر نادر الحدوث بدرجة كبيرة. فقدرته على سبر أغوار هذين المجالين من العلوم بهذه السهولة وسد الفجوة بينهما هو في حد ذاته إسهام كبير لعلم الاقتصاد، وأعتقد أنه كذلك بالنسبة للعلوم السياسية أيضا».

ويقول البروفيسور أندريه شليفير، من جامعة هارفارد، «إنه عالم اجتماعي مبدع بصورة هائلة، ينصب تركيزه دائما على أهم قضايا التنمية، سواء كانت سياسية أو تعليمية. فقد تناول في عمله خلال التسعينات كيفية سير الانتخابات عندما يرفض الخاسر قبول النتائج. وقد تبين أن هذه قضية جوهرية في الديمقراطيات الناشئة في إفريقيا».

ويكتب وانتشيكون حاليا كتابا حول التنمية الاقتصادية والحراك الاجتماعي طويل الأجل. ويعتزم استخدام بيانات من عينة مؤلفة من ثلاثة أجيال من العائلات لتوثيق التقدم الاجتماعي والاقتصادي المحرز من مرحلة ما قبل الاستعمار في بنن حتى الوقت الحالي. وترجع البيانات إلى أواخر القرن التاسع عشر. (مملكة داهومي أصبحت مستعمرة فرنسية في عام ١٩٠٤ ونالت استقلالها لتصبح جمهورية بنن في عام ١٩٦٠). وهو يهدف إلى الكشف عن دور التعليم ومختلف أشكال الاستثمارات التي تقوم بها الأسر والحكومات في مجال التنمية.

ويعد هذا الكتاب بمثابة متابعة لتقدم سير مشروع حول التعليم والحراك الاجتماعي سبق أن أدى إلى قيام وانتشيكون بكتابة دراسة بحثية في عام ٢٠١٥ — نُشرت في «المجلة الفصلية للاقتصاد» (Quarterly Journal of Economics) — وأوضحت كيف أدت مدارس الإرساليات منذ قرن إلى تعليم الصفوة في المستقبل وأثرت تأثيرا عميقا في هيكل المجتمع والاقتصاد في بنن بعد الاستقلال. ويقول البروفيسور شليفير في هذا الشأن إن «مدارس الإرساليات لا تزال تقوم بدور مهم في إفريقيا، لكنني لا أعتقد أن أحدا أدرك أهميتها الكبيرة في بناء ما يطلق عليه الاقتصاديون اسم «الطرف العلوي» لرأس المال البشري. وفي صباح يوم جميل من شهر يونيو، في حرم جامعة برينستون الذي كاد يكون خاويا، استعرض وانتشيكون في ذاكرته رحلته منذ أن كان ناشطا طلابيا إلى مؤسس كلية لتدريب الاقتصاديين الأفارقة، وقال «إنها لم تكن بالرحلة السهلة، لكنها انتهت نهاية طيبة».

واستطرد قائلا «وكان للحظ دوره». فقد كادت خطته المحكمة للفرار إلى نيجيريا أن تبوء بالفشل في اللحظة الأخيرة. فعند وصوله نقطة العبور الحدودية، كان هناك شرطي يعرفه تماما قائما بالخدمة. فما كان من الناشط الشاب المذعور — الذي كان على دراية محدودة بمبدأ الحوافز — إلا أن مد يده إلى جيبه ثم وضع رزمة من النقود في يد الشرطي. وانتزع الشرطي الرشوة وحث السائق على مواصلة طريقه.

وخلال دقائق، بدت كأنها لا نهائية على طريق ترابي من بنن، وصل وانتشيكون إلى نيجيريا. ولم يكن وانتشيكون يعرف وقتها أنه كان يقوم بعمل سيذكره التاريخ — فقد نجح في تحقيق أكبر عملية هروب من السجن ذات آثار إيجابية. ■

إسماعيل دينغ كان حتى وقت قريب من فريق العمل في مجلة التمويل والتنمية، ويشغل حاليا منصب مدير إدارة التواصل والعلاقات الخارجية في مجموعة بنك التنمية الإفريقي.